الإنسان المعاصر والعقيدة

بقلم الأستاذ : أحمد عبد الرحيم السايح
بكلية أصول الدين والدعوة
قسم العقيدة والفلسفة

ماهى الشريعة الإسلامية .. هل يتعلق الحكم بقلوب الناس واعتقاداتهم.. أم يتعلق بأعمالهم وسلوكهم . . ؟

هل يمكن أن يستقر الإنسان فى هذا الكون بدون عقيدة . . ؟

ما أخص خصائص العقيدة الإسلامية . . ؟

إن كلمة «عقيدة» من الألفاظ الكلية ، التى لا يحدد مدلولها إلا بما تضاف إليه من الكلمات المعبرة . . غير أنها من حيث الاشتقاق اللغوى تدل على مفهوم عام : لكل ما يعقد المرء عليه العزم ، ويجعله مناط التصميم . . والعقيدة كمعنى قائم بنفس المعتقد . عندما يرجع الإنسان إلى نفسه ، بالتأمل تنكشف له ظاهرة داخلية ، ترتبط كل الارتباط بكيانه ، وتكون مقوما ضروريا لطبيعته . ومن هنا يدرك الإنسان ضرورة التصديق ببعض القضايا والمسلمات التى لا يستطيع عنها فكاكا ، وليس فى مقدوره أن ينفصل بفكره ووجوده عن رباطها الوثيق ، وصلتها العميقة فى نفسه .

وكلمة « عقيدة » مأخوذة من « العقد » وهو الجمع بين أطراف الشىء . . ويستعمل ذلك فى الأجسام الصلبة ، كعقد البناء ، ثم يستعار للمعانى نحو عقد العهد كأنه ربط بين أجزائه ... ومادة العقد والتى أخذت منها كلمة «العقيدة» قد وردت فى عدة مواضع من القرآن الكريم . لكن لم ترد بصيغة «العقيدة» لا فى القرآن ، ولا فى معاجم اللغة . . إلا المصباح المنير ، فقد ذكر فيه القيومى : أن العقيدة ما يدين به الإنسان . . وفى المعجم الوسيط الذى وضعه

بمجمع اللغة العربية بالقاهرة : أن العقيدة هى الايمان بحقيقة معينة ، إيمانا قطعيا ، لا يقبل الشك ، أو الجدل . وهى الحكم الذى لا يقبل الشك فيه لدى معتقده .

والعقيدة الدينية كما يقول العقاد فى عقائد المفكرين : هى طريقة حياة، لا طريقة فكر ؛ ولا طريقة دراسة . . إنما نعنى بها حاجة النفس كما يحسها من أحاط بتلك الدراسات ، ومن فرغ من العلم والمراجعة ، ليترقب مكان العقيدة من قرارة ضميره .. إنما نعنى بها ما يملأ النفس لا ما يملأ الرؤوس ، أو يملأ الصفحات .

والعقيدة التى يصح أن توصف بالدينية هى العقيدة هى العقيدة التى تعتمد على سند فوق الطبيعة .. وأن العقيدة قوة مطلوبة لا يستغنى عنها من وجدها ، ولا يطيق للفراغ منها من فقدها ، ولا يرفضها من اعتصم منها بمعتصم ، واستقر فيها على قرار .

فالعقيدة الدينية هى التى ينبثق عنها نظام للحياة ، وبرنامج عملى يحتضن كل مضامين الخير ، والتقدم، والفضيلة ، ويوفر تطبيقه السليم ، كل ضمانات العدل الاجتماعى ، وتطلعات السؤدد .. والعقيدة الاسلامية — والتى كونت فى مجموعها صورة الفكر الاسلامى — قد أوضحها سعد الدين التفتازانى أحد أقطاب علماء العقيدة ، فى شرحه للعقائد النفسية ، فى العبارة التالية ، وهو بصدد تقسيم الحكم الشرعى : « إن الأحكام الشرعية منها ما يتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعية وعملية ومنها ما يتعلق بالاعتقاد وتسمى أصلية واعتقادية .. والعلم المتعلق بالأولى يسمى علم الشرائع والأحكام . لما أنها لا تستفاد الا من جهة الشرع ولا يسبق الفهم عند إطلاق الأحكام إلا إليها : والثانية علم التوحيد والصفات . لما أن ذلك أشهر مباحثه وأشرف مقاصده فالحكم — كما يذكر العلماء — سواء تعلق بالاعتقاد القلبى أو بأعمال المكلفين فهو حكم شرعى .. وفرق كبير بين إثبات حكم لمعتقد من المعتقدات وبين إثبات حكم لعمل من

الأعمال .. وموضوع علم العقيدة الاسلامية إنما هو اعتقاد المكلفين ، أما موضوع الشريعة الاسلامية فهو كيفية أعمال المكلفين .. وبنظرة فاحصة نجد أن الحكم فى موضوع علم العقيدة يتعلق بمعتقد مجاله القلب ، ومسئولية المسلم حياله إنما هى التصديق به . . فهو منحصر فى دائرة نظرية فالتصديق بوجوب الوجود لله عز وجل ، والتصديق بوحدانيته وباتصافه بكل صفات الكمال ، وبأحقية رسالة محمد ﷺ ، والبعث والجنة والنار . . كل هذه أمور اعتقادية تتعلق بالاعتقاد الذى محله القلب ودائرته الفكر والنظر .

وبنظرة فاحصة فى موضوع الشريعة الاسلامية نجد أن الحكم فيها لا يتعلق بقلوب المكلفين من الناس واعتقاداتهم ، وإنما يتعلق بأعمالهم وبعبارة أوضح وأدق .

يتعلق الحكم بكيفيات أعمالهم :

فالعقيدة الاسلامية إذن هى الجانب النظرى الذى يجب على المؤمن الايمان به أولا إيمانا يقينيا مبنيا على التصديق الجازم مع الشعور بالرضا والقبول ، وإقبال النفس عليه ، والاطمئنان به ، أما الشريعة الاسلامية فهى النظم التى شرعها الله سبحانه وتعالى : ووضع أصولها لاصلاح حال الخلق ، ليستضىء بها الانسان فيما هو بصدده وماهو ضرورى لحياته من علاقات ، كعلاقته بالله ، وعلاقته بالناس سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين . وعلاقته بالكون الذى يعيش فيه ، وعلاقته حتى بنفسه وماله ، من هنا وضع الاسلام منهجا كاملا فى التخطيط ، ليعمل سلطان الدعوة دوره الفاعل ، فى التغيير ، بوصف القرآن الكريم الحارس للقاعدة ، التى تنبثق عنها كافة مفاهيم الاجتماع ، والسلوك ، ومقولات التربية التى بها يصاغ المجتمع الذى يعيش فيه إنسان الاسلام ، فى إطار الاسلام .. وتاريخ أية حقبة من مسيرتنا ، إنما هو تاريخ الحركة فى نطاق العقيدة ، الموجهة لها ، والدافعة للعمل بها ، وتارقخ العقيدة التى أملت التعامل بهذا الأسلوب أو ذاك حينما يملك المجتمع عقيدة ذات فاعلية اجتماعية موجبة كالعقيدة الاسلامية . . .

والعقيدة الاسلامية بالتكامل المنهجى الذى جاءت به قادرة على إحداث التغيير فى السلوك ، والأعراف ، والعادات . والمظاهر والتغيير الفكرى هو أساس أية عملية ، وأن التغيير الفوقى ، وتغيير إدارة الفعل الاجتماعى وغيرها عوامل مساعدة ، قال تعالى فى سورة الرعد : «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» فما يجريه الله من تغيير على عباده مسبوق بما يجرونه هم فى أنفسهم من تغيير ، فالله لا يغير ما بقوم حتى يوجدوا هم أنفسهم حالات تؤدى إلى هـــذا التغيير ، فالفعل المنسوب إلى الله فى الآية مسبوق بفعل الانسان : وقد يظن بعض المتفلسفين أن هناك تناقضا بين هذا الجزء من الآية الكريمة . والجزء الذى يقول فيه رب العزة «وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال» ، والحقيقة أن هذا الجزء الأخير من الآية لا يناقض صدرها بحال : لأنه ليس إلا تصريحا بالمطوى وسنن الله الكونية ، فإذا غير القوم ما بأنفسهم نحو السوء ـ مثلا ـ فلابد أن يحل بهم الهوان ، ولا يملك أحد أن يدفع عنهم هذا المصير ، لأن خالق الكون وخالق قوانينه ، جعل هذه القوانين مؤدية إلى نتائجها .

وبهذا المعنى الذى وعاه المسلمون ، وفهموه من عقيدتهم . استطاع الجيل الأول من المسلمين ، فى فترة ربما كانت من أحلك فترات التاريخ الانسانى ، وفى قوم هم يقينا من أصعب ما يمكن معهم ترويض نفوسهم على إتلاف ـ عادات وتقاليد ، وجدوا عليها الآباء من قبل والائتلاف مع تقاليد وعادات أرادها الاسلام .

ولقد جاء الاسلام بمبادىء تحقق للانسان مطامحه العليا ، ويجد الوجدان فيها ضالته المنشودة ، وعلى أسسها تقبل العواطف بالحب والشوق ، والأمل ، والحياة .

أحمد عبد الرحيم السايح